كيف يرقى الادب

للاستاذ احمد أمين

أشرت فى مقال سابق الى العلاقة بين الذوق العام ورقى الأدب ، ووعدت القراء أن أعود الى هذه العلاقة ، أزيدها بسطاً وايضاحاً ، وذلك ما أحاوله فى هذا المقال

يذهب بعض المفكرين الى أن الفنون ـ ومنها الادب ـ ترتقى وتنحط ، وتعلو وتسفل ، وتتقدم وتتأخر ، فى الامم اعتباطاً من غير أن يكون لذلك أسباب . أو على الاقل أسباب ظاهرة . فالناظر لتاريخ الفنون فى العالم يرى أن أمة فى عصر من العصور قد ترقى فى فن من الفنون كالموسيقى أو الحفر أو التصوير أو الشعر ، على حين أن أمة أخرى ترقى فى فن آخر من هذه الفنون ، ثم بعد رقى عظيم تنحط الامة فى هذا الفن ويحل محل الفن فن آخر . أولا يحل محله شيء ، وتتبادل الامم ذلك من غير أن يكون لهذا التقدم وهذا التأخر علة مفهومة ، وشأن الفنون شأن النابغين . فقد ينبغ النابغ فى أمة ولا نعرف لم نبغ وكيف نبغ ، وتحاول الامة أن تخلق نابغين فلا ينخلقوا . — بل ترى الامر عجبا ، فقد يوجد النابغة والامة على أسوأ ما يكون من ضعف فى الخلق . وضعف فى العقل ، ثم ترقى الامة عقلا وترقى خلقا . وكان مقتضى هذا أن يكثر عدد النابغين فيها ويزدادوا نبوغا بازدياد الامة رقيا فينعكس الامر حتى لتجد الامة وأعضاؤها قوية ولا رأس . بينما كان لها فى حال ضعفها رأس قوى ولا أعضاء — ماذاك الا لان النابغة يوهب ولا يخلق . وقد قال هؤلاء إن الفنون فى ذلك ليست كالعلوم ، فالرقى فى العلوم سبيله ميسور ممهد ، وتستطيع الامة أن تضع لها خطة تسير عليها لترقى فى الطبيعة أو الكيميا . أو الرياضة . فاذا هى جدت فى ذلك وصلت الى درجة من الرقى تناسب جدها واستعدادها ، ولكنها لا تستطيع أن تضع خطة تسير عليها للرقى فى الشعر والموسيقى والتصوير ، لان ذلك نوع من الألهام ، والالهام يد الله يمنحه من يشاء كيف شاء متى شاء — ولعل الكاتب يشعر بهذا تمام الشعور فى نوع مايكتب ، فهو اذا أراد ان يكتب بحثا علميا او يحقق لفظا لغويا او يحرر حادثا تاريخيا ، فهو فى أكثر اوقاته مستعد لذلك ، مالم يكن مريضا أو مهموما — ولكنه اذا شاء ان يكتب قطعة فنية أدبية انشائية لا يستطيع ذلك الا فى حالة نفسية صافية ، ومزاج يتناسب والقطعة الفنية التي ينشئها . من حزن أو سرور ، وحلم أو غضب . ويصادفه وقت هو كما يسميه الصوفيه — وقت تجل ، يجيد فيه ويغزر ويسمو فيه ويصفو ، ويعجب كيف أجاد وكيف غزر . ثم هو يحاول بعد مرارا ان يخلق مثل هذا التجلى . فيفشل ثم يفشل ، ويحار فى تعليل ذلك ، وتعليلها هو ماقاله علماء الكلام «ولم تكن نبوة مكتسبة» — هو فى العلم مالك وقته يصرفه كما يشاء وهو فى الأدب ينتظر الالهام

وقالوا إن رقى الامة فى الادب لا يرتبط بدرجة ثقافتها . ولا برقيها العقلى ، ولا بأى سبب من الاسباب ، فالامة المصرية — قديما — رقيت فى فنون النحت والنقش والبناء رقيا بديعا جعلها من اساتذة العالم فى هذا الباب ، وخلفت على مر الأزمان ثروة لا تقوم ، ولا تزال قبلة الفنانين تستخرج اعجابهم وتلهم أذواقهم ، والمصريون الآن ليسوا اساتذة فى الفن ، حتى ولا تلامذة . مع ان أحدا لا يستطيع ان يقول ان المصريين القدماء كانوا أرقى منا عقلا وأعلى ثقافة ـ وكذلك يشكو كثير من الاروبيين من ان الفن ـ ماعدا الموسيقى ـ أخذ يتدهور من القرن السادس عشر مع ان أنواع العلوم فى رقى مستمر . وعقليات الأمم فى تقدم دائم . ـ ولو كان الامر بالعلل والأسباب المنطقية لوجب ان يكون المصريون اليوم أعلى فنا وأكثر نبوغا ، ولكان الفن الأوربى الآن أسمى وأتم منه فى القرون الوسطى ـ فأما وقد عجز المنطق عن تقديم مقدمات ونتائج صحيحة فليس الا الألهام ، وليس للامة الا ان تنتظر ما يأتى به القدر

هكذا قالوا ، أو حاولوا ان يقولوا ، وبهذا احتجوا ، او حاولوا ان يحتجوا ولكن هل هذا صحيح ؟ ـ ان فى هذا الرأى غلوا مفرطا ، انه يخرج الأدب عن دائرة الأرادة ويجعله مجرد انتظار للوحى والألهام ، ومن الحق ان للأدب خطة تنتهج كمنهج العلم ، وأن من نعده للأدب يجب ان تثقفه ثقافة

خاصة كالذى نعده للعلم ، ولكن من الحق أيضا اننا لانخلق الاديب برنامجنا ، بل لابد ان تكون قد هيأته الطبيعة ومنحته استعدادات خاصة وكفايات ممتازة ، وتهيؤ القبول الالهام . ولكنه فى كل ذلك كالعالم ، فبرنامج العلم لايخلق نابغة فى العلم انما يُعده ، والعالم لابد ان يكون مهيأ للالهام كالاديب . واكثر المخترعات والمستكشفات فى العالم كانت نتيجة الهام اكثر منها نتيجة لمقدمات منطقية وتجارب عملية . وانما التجارب تهيء للالهام وتحقق ما يأتى به ، وتبين صحيحه من فاسده وتسمى هذه الالهامات فروضاً .

ويظهر ان اتجاه هؤلاء الباحثين هذا الاتجاه سببه عقيدة سادت بين علماء الفن وعلماء الجمال عهداً طويلا وهى « ان الذوق لايعلل » فالناظر ينظر الى الصورة فيستجملها أو يستقبحها ، فان أنت سألته لم استجملها أو لم استقبحها لم يحر جوابا ، واذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ولكنها جوفاء لاتحوى علة ولا توضح سببا ، وانما هى نفس الدعوى بألفاظ رشيقة جميلة ، واذا رأيت طاقة من الزهر قلت ما اجملها ولكن ان سئلت لم كانت جميلة قلت انها منسقة ، انها بديعة الألوان ، ان نفسى لترتاح الى رؤيتها ، انها لتسر النظر ، وتبهر العقل ، وأنت غنى بعدُ عن أن أقول لك ان هذه الفاظ وجمل قد ترضى البلاغة ولكن لا ترضى المنطق وقد تعرض لصورة أو يظهر انسان امام جمع من النظارة فهذا يستحسنه وذاك يستقبحه ، وثالث لايستحسنه ولا يستقبحه ، فأذا سألت من استحسن لم استحسن ومن استهجن لم استهجن ، ومن حايد لم حايد ، كانت الاجابات مثاراً للعجب وموضعاً للضحك — وقد ترى انساناً كل عضو من أعضائه على انفراده جميل ، ولكنه ليس جميلا ككل ، فما الذى كوّنه هذا التكوين ؟ وما الذى وضعه هذا الوضع ؟ ولِمَ استحسنته مفرقا ولم تستحسنه جملة ؟ لاشيء فى الحقيقة الا الذوق الذى لايعلل ، وهذا هو الشأن فى الأدب ، وأظهر مثل لذلك مافعله عبد القاهر الجرجانى فى اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، فماذا صنع — انه يأتى بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل فيم كان جماله ، فما هو الا أن يصوغ لك جملا رشيقة فيقول : ان هذا اللفظ يروقك ويؤنسك ، وغيره يثقل عليك ويوحشك ، وهذا الوضع يهزك جماله ، هذا النظم يأخذ بالك ما فيه من نسج وصياغة ، وتخير ، وتعال سبب ذلك أحيانا بالتقديم والتأخير ، وأحيانا بالفصل والوصل — وكلها علل لا تصلح ، فانا نقول ان ذلك بتقديم يحسن ، وتقديم مثله يقبح ، وفصل ، وعلك وفصل مثله يسوءك وقد تحاول أن تفرق بينهما فلا تستطيع ، ثم تسلم سلاحك وتكتفى بأن تقول هذا جميل . وهذا قبيح ، وهذا يحسن فى ذوق وهذا لايحسن ، وبذلك تكون قد قطعت شوطاً بعيداً ، ثم فى آخر الأمر عدت الى النقطة التى بدأت منها سيرك ، وما علوم البلاغة كلها الا محاولة لتعليل الذوق الادبى ، ولكن هل افلحت فى التعليل ؟ انا لنخشى أن تكون قد دارت حول نفسها ، ولم تأت بشيء « لأن الذوق لايعلل »

واذا كان الذوق لا يعلل فكل ما ترتب عليه لا يعلل ، واذا كان الفن وليد الذوق فالفن لايعلل ، ولا يعلل كيف ظهر وكيف قوى وكيف ضعف

هكذا أيضاً قالوا أو يصح أن يقولوا — وهذه الآراء — وان كان فيها شيء من الحق — ليست حقا كلها ، وليست حقا فى أساسها ، وقد بذل بعض العلماء المحدثين مجهودا حميدا فى بيان ما فيها من حق وباطل وحاولوا أن يفلسفوا الذوق ، ويفلسفوا الجمال ووضعوا للذوق والجمال علما Aesthetics وعدوه فرعا من فروع الفلسفة . وحاربوا فيه الفكرة السائدة : « إن الذوق لا يعلل » ، ووضعوا قواعد لتعليله نجحوا فيها أحياناً وفشلوا أحياناً ، ولا يزال مجال البحث أمامهم فسيحاً ، وكان لهذا الاتجاه الجديد فى علم الجمال أثر كبير فى خلق نظريات فى الأدب ، ووضع أسس جديدة للبلاغة والنقد الأدبى مما ليس هذا موضعه

والذى أميل اليه أن الفن نتيجة الذوق لا محالة ، وأن الذوق يمكن تربيته وترقيته ، فالطفل اذا لفتَ نظرُه الى الازهار وجمالها تكوّن فيه الميل الى حبها والاستمتاع بها ، فاذا كان بعدُ أديبا اتصلت حياته الادبية بها ، وظهر فى نتاجه الفنى هذا

الحب وهذا التقدير

والذوق العام للأمة فى قوته وضعفه ورقيه وانحطاطه، ليس يظهر فجأة ولا هو نتيجة المصادفة البحتة ، انما هو نتيجة لكل مايحيط بالأمة من ظروف وأحداث ، هو نتيجة النظم السياسية ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافة العقلية وغير ذلك ، وان شئت فقل ان ذوق الامة هو تعبيرها عما تقوم . فالامة اذا قومت المناظر الطبيعية تذوقتها ، واذا قومت جمال الازهار تذوقته . واذا لم تقوم نظام المجتمعات لم تتذوقه ولم يجرح ذوقها تهويش على محاضر أو مغن أو ممثل — والفنان ليس الا معبرا عن ذوق الامة ، والاديب ليس الا الموقع للأصوات التى تستلذها الامة

ومن أهم اسباب ضعف الأدب العربى مسألتان تتصلان بهذه الحقيقة : الاولى ان الادب العربى لايتصل بالذوق العام للامة اتصالا وثيقا ، لانه يصاغ بلغة غير لغة الشعوب ، ولا يتصل إلا بذوق خاص وهو ذوق محترفى الادب ، ومن تكون ذوقهم تكوينا كلاسيكيا — ولا أمل فى نجاحه الان نعمل بأى شكل كان على ان نصل الادب او أكثره بالذوق العام ، والثانية تتصل بالاولى . وهى ان الآداب فى أكثر الامم كانت أرستقراطية النزعة يوم كانت القوة فى يد الارستقراطيين ، فلما انتشرت الديمقراطية تبعها الادب ، فأصبح ديمقراطى الموضوع ، ديمقراطى النزعة ، اما الادب العربى فقد أصبح ارستقراطيا منذ العهد الاموى ، وأصبح أهم أنواع الادب إنما ينشأ حول قصور الامراء والاغنياء ، وفى الموضوعات التى تناسبهم من مديح لهم وهجاء لاعدائهم ، فلما عمت النزعة الديمقراطية العالم لم تؤثر فى الادب العربى أثرها فى غيره من الآداب ، بل ظل محتفظا الى حد ما بأرستقراطيته ، وهذا قلل من غير شك اتصاله بالذوق العام للامة — وقد نعود الى توضيح ديمقراطية الأدب فى مقال تال

على كل حال لا وسيلة لترقية الفن ومنه الادب الا بترقية الذوق ، وربط الفن به ، ولذلك وسائل :

من أهمها التأذين فى الناس بصوت عال يهزهم هزا عنيفا حتى يشعروا بان أذواقهم مريضة ، لا يشعرون بالجمال كما ينبغى ولا يهيمون بالحسن كما يجب ، ولست أعنى جمال الوجوه وحدها ، ولكن جمال الازهار ، وجمال الطبيعة ، وجمال الموسيقى ، وجمال الحركة ، وجمال النظام ، وجمال النظافة ، وجمال المعانى ، ويجب ألا يقتصر دعاة الفن على الدعوة لجمال الكرنك وأنس الوجود والمساجد الاثرية بل يجمعون الى الدعوة لجمال الماضى جمال الحاضر — وهذا أكثر وضوحا فى الادب فدعوة الادباء دائما وقول الادباء دائما انما هو الى الماضى وفى الماضى ، وهذا حسن لدرجة ما ولكن يجب أن يقرن به الدعوة القوية أيضا الى النظر الى أنفسنا والقول فى أنفسنا

يجب أن نغير تسعيرة الاشياء ، ونضع تسعيرة جديدة لما يدور حولنا ، ونضع امام ناشئتنا قيما جديدة لما يقع عليه نظرهم ، فاذا كانت بيوتنا تعنى بكمية الاكل وتعطيها أكبر قيمة ، وجب أن نرفع قيمة الكيفية فنضع قيمة كبرى للازهار على المائدة ولجمال الترتيب والنظام ولجمال الحديث

يجب ان نوجه ارادتنا فى ترقية الذوق كما نوجه ارادتنا لترقية العلم ولترقية النظام السياسى ، ونضع للذوق برامج كالتى نضع لبرامج التعليم

إنا إن فعلنا ذلك تمخض المجتمع عن فنان ماهر ، وأديب قادر .

احمد امين

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ امام جريدة الاهرام

تلفون نمرة ٥١٣٩٤

لصاحبها حسن محمد

أول مكتبة افرنجية يملكها مصرى

تبيع بسعر الخارج

كتب الطب والجامعة المصرية والمدارس العليا والثانوية

ستنقل المكتبة قريبا جدا الى العمارة رقم ١٥ بشارع المدابغ أمام جريدة الاهرام ، وقد عمل تصميمها الجديد كما حدث أشكال المكاتب الاوربية ، وسيكون مكان العرض الجديد بها ضعف الاول .